الفصل الثالث
الإيمان بالغيب

﴿هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ ۞ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ ...﴾ (٢ البقرة:٣-٤)

الإيمان بالغيب دعامة أساسية من دعائم الإيمان في دين الإسلام، كما تبينه هذه الآية الكريمة. ولكن كما أوضحنا جملة وتفصيلا في الفصل السابق.. إن القرآن المجيد كتاب يقوم على العقل والمنطق، وهو يُدين الإكراه بشدة، أو حتى التهديد بأي شكل من الأشكال لتغيير آراء الناس غصبا. وعلى ذلك.. يكون تفسير الإيمان بالغيب ليعني أن الكتاب العزيز يحض على الإيمان الأعمى.. لأنه يقتضي من الإنسان أن يؤمن بأمور "غيبية".. أي غير منظورة ولا مشاهدة.. هو تفسير مناقض لما يحض عليه القرآن المجيد من تمسك بالمنطق والعقل. بل إن القرآن يصم غير المؤمنين بأنهم هم الذين يؤمنون بما لا يقوم عليه دليل ولا يؤيده برهان. وهو أيضا يُدين محاولاتهم لتغيير معتقدات المؤمنين بقوة الإكراه الفظ. إذن.. ماذا تعني جملة "الإيمان بالغيب"؟ هذا هو السؤال الهام الذي يقتضي أن نعالجه بإيضاح.

لا بد من دراسة عميقة لهذه الجملة التي يختص بها القرآن المجيد، فإن الخطأ في فهم معناها الصحيح يمكن أن يؤدي إلى عواقب وخيمة، كما حدث في العصور الوسطي خلال المناظرات الفكرية بين مختلف المدارس الفكرية في الإسلام. إن بعض علماء المسلمين المتزمتين الذين لا يقبلون التزحزح قيد أنملة عن آرائهم يرفضون استعمال العقل كلية في الأمور الإيمانية. فهم يدّعون أن الحقيقة التي جاء بها الوحي الإلهي تكفي في حد ذاتها، وعلى ذلك فمن المحتم قبولها بغير أية تحريات عقلانية أو بحوث

فكـــرية. والآخرون الذين يعارضون هذا الرأي يستشهدون بالعديد من آيات القرآن الكريم التي تحض كل إنسان على أن يلتزم بما يمليه عليه العقل في كـــل مرحلة من المراحل التي يقتضي الأمر فيها اتخاذ قرار في أمر هام، وأن يُعطي المرء الأولوية للعقلانية على الإيمان الأعمى.

ولكـــن.. مـــا هو الإيمان؟ كيف يؤمن الإنسان بغير أن يشبع فطرته الطبيعـــية في البحث وتقصي الحقيقة؟ ألا يخبرنا الواقع بأن الغالبية العظمى بين عامة الناس من أتباع جميع الأديان يؤمنون بدون فهم حقيقي لما يؤمنون به؟ إن الناس عامة يؤمنون لمجرد الإيمان، وهذا هو كل ما في الأمر.

هـــذه هـــي المعضلة التي تتطلب منا مواجهة موضوع الإيمان مقابل العقـــل، وتقرير طبيعة العلاقة المتبادلة بينهما. وحيث إن هذا الموضوع قد ســـبق معالجـــته بما يكفي من تفصيل في فصل سابق تحت عنوان *الفلسفة الأوربـــية*، فسوف نجتهد ألا نكرر هنا بغير ضرورة ما سبق ذكره هناك. وعلى هذا فإن الغرض هو الوصول إلى فهم أوسع لمعنى لفظ "الغيب".

وفي الـــبداية.. دعونـــا أولا نؤكد على حقيقة هامة، وهي إن عدم معـــرفة شـــيء ما.. لا يعني بالضرورة عدم وجود ذلك الشيء.. إذ قد يكـــون موجودا ولكنه يكون مختفيا وراء غلالة من المجهول. وفيما بعد.. إمـــا مـــن خلال البحوث التي يقوم بها الإنسان، وإما عن طريق الوحي الإلهـــي، ينكشـــف المجهـــول.. ويخرج من عالم الغيب إلى عالم الحقيقة والمشاهدة.

إن لفـــظ "الغيب" في معناه الواسع يشمل كل ما هو غير مرئي وغير مســـموع بصـــورة مباشرة، وأيضا كل ما لا يمكن التعرف عليه بواسطة حـــواس الإنســـان. ويمكن أيضا تعريف الغيب بأنه يشمل جميع أشكال الوجـــود التي لا تدركه الحواس الخمسة بصورة مباشرة. وما ينطوي تحت هذه الفئة من أمور أو أشياء لا تظل على الدوام بعيدة المنال بحيث لا يمكن الوصول إليها، بل تظل مجهولة لمدة محدودة فقط.

وكل مغاليق المعرفة للأمور الخاضعة للإدراك التي تنتمي إلى الماضي أو الحاضر أو المستقبل تقع في نطاق هذه المجموعة. وبمعنى آخر.. فإننا مطالبون أن نؤمن بوجود أشياء غير معلومة في مرحلة معينة من الزمن، ولكنها موجودة.. وقد تصبح معلومة في مرحلة أخرى من الزمن. ولا يمكن بطبيعة الحال وصم هذا الإيمان بأنه إيمان أعمى. والقرآن المجيد لا يتطلب من المؤمنين أن يؤمنوا بشيء لا تؤيده البراهين التي لا تُدحَض والأدلة التي تُنقَض. وعلى هذا فإن الغيب يشمل فقط تلك الأمور التي يمكن التعرف عليها باستخدام آليات الفكر والعقل والاستدلال المنطقي. والأمر الذي يجدر ملاحظته هنا هو أن الغيب، كما عرّفناه هنا، رغم أنه لا يمكن إدراكه بالحواس الخمس، فإنه مع ذلك يمكن إثباته والتحقق من صحته. والتجارب الإنسانية تؤيد تماما هذا الرأي القائم على الأساس المنطقي الذي يقول به القرآن المجيد.

من بين الأشكال المادية الموجودة.. هناك كثير من الأشكال والأنواع التي لا تخضع للاختبار المباشر، ولا يمكن معرفة وجودها ولا خصائصها الطبيعية إلا من خلال الاستنتاج المنطقي، أو بواسطة الأجهزة الإلكترونية المتقدمة التي تجعل هذه الأشياء في متناول الحواس بطريق غير مباشر. فمثلا.. ما هو النيوتريون واللانيوتريون؟ ما هي المادة واللامادة؟ ما هو البوزون واللابوزون؟ إن الإجابة على هذه الأسئلة لا يمكن معرفتها عن طريق أي اختبار مباشر. ومع ذلك فإن وجود عالمها الغيبي قد صار حقيقة مقبولة بشكل عام. ويجب أن نتذكر هنا أن العقل هو الكيان الأعلى في الحياة، فهو الذي يحسب ويستقبل كل الرسائل التي تُنقل إليه عن طريق الحواس، وذلك من خلال حاسوب وهو المخ البشري. فالعقل ليس اسما مرادفا للمخ، وإنما هو يعلو ويسمو عن المخ ويدير ويتحكم في عملياته.

إن العقل هو العرش الأسمى للإدراك، والاستنتاج العقلي من أعظم الخواص المدهشة للعقل. وحتى إن لم يُزوَّد العقلُ بأية حقائق.. فإنه يظل

يعمـــل مســـتخدما معلومات وبيانات افتراضية، كما أنه يستطيع العمل باجـــترار وتأمل المعلومات والمعارف المخزونة من قبل. ويتم اتخاذ جميع القـــرارات عـــلى مستوى العقل، بينما لا يزيد المخ عن كونه آلة مادية ومخـــزن للذاكرة. وبالإضافة.. إن العقل له القدرة على التأمل والتفكر في الأمـــور الميتافيزيقية، وهي الأمور العقلية والتي هي وراء المادة والطبيعة. وأيضا يختص العقل بالأمور التصورية مثل اللانهائية والأزلية. ويجتهد العقل لحل لغز ما يبدو أنه سلسلة لا نهاية لها من الأسباب والمسببات.. أين يبدأ شـــيء معين وماذا يوجد وراء كل بداية؟ هل هناك سبب أول قبل جميع الأســـباب؟ وإن كان.. فهل كان سببا حيا مُدركا أم كان ميتا بغير عقل ولا إدراك؟ إن الاســـتنتاج الوحيد المعقول، والذي يمكن للعقل استنباطه، هو أن السبب الأول لا يمكن أن يكون ميتا بغير إدراك.

هناك أيضا السؤال عما إن كان يمكن للموت أن يخلق حياة، أو يمكن لعـــدم الإدراك أن يكـــون الســـبب في وجود الإدراك. فهذه الأمور من الموضـــوعات الـــتي يستطيع العقل فقط أن يستكشفها، وليس كتلة المخ وحدهـــا. وعلى هذا يحدث في بعض الأحيان أن يؤمن العقل بالغيب من خـــلال ممارسة الافتراضات، بينما في أحوال أخرى نجد أنه يختبر ويغربل المعلومـــات المخـــزونة في المـــخ، ثم يستخلص منها النتائج المنطقية. فهو يستطيع أن يتصور جميع أشكال الإشعاعات والموجات التي توجد حولنا، ولكـــن الإنســـان لا يستطيع أن يعلم بوجودها، لا عن طريق البصر ولا السمع ولا الطعم ولا الرائحة ولا اللمس. نعم يمكن أن تُرى وتُسمع عن طـــريق جهـــاز المذياع أو التلفاز، ولكن بعد تحويلها إلى نبضات مرئية ومســـموعة. وحتى حينذاك يكون العقل هو المسؤول في النهاية عن فك رمـــوز هـــذه الذبذبات الكهربية ليجعل منها ظواهر صوتية وصورا شبه حـــية. فإن الصور والمشاهد التي يخلقها العقل ليست هي مجرد تلك التي تراها العين على سطح شاشة التلفاز، فهناك أكثر مما تراه العين، إذ يُضيف

العقل الكثير من المعاني غير المرئية إلى الصور المرئية قبل أن تتحول المشاهد كلها إلى أمور ذات معنى.

غـــير أن المعـــارف الخافية في نطاق عالم الغيب يمكن الوصول إليها، والحصـــول علـــيها أيضـــا، عن طريق الوحي، بالإضافة إلى الآليات التي ذكـــرناها. ولذلـــك فإن ملكة العقل.. الذي هو المتلقي النهائي لجميع المعـــارف والانطـــباعات.. يمكن أن يُزوَّد بها عن طريق كل من ظاهرة الوحي وأجهزة الحواس. وكل منهما يستطيع أن يعمل ويؤثر، سواء كان مســـتقلا عـــن الآخـــر أو مرتبطا به، كما أن كل منهما يساعد الآخر. فمثلا.. يمكن للوحي أن يعطي فهما أفضل للأشياء التي تُشاهد من خلال أجهـــزة الحواس، وذلك بإنارة الملكات الإنسانية وإعلائها إلى آفاق أرفع وإلى مســـتويات أسمـــى للإدراك، تكون أكثر نقاء وأشد صفاء. والوحي يســـاعد العقـــل على حل رموز وفهم رسائل وانطباعات أجهزة الحواس بوضـــوح ودقـــة، بينما لم يكن ذلك ممكنا بغير الوحي. وأجهزة الحواس بدورهـــا تساعد أيضا متلقي الوحي على فهم رسالة الوحي فهما أفضل، وذلك بمساعدة المعارف والمعلومات المخزونة في بنوك الذاكرة بالمخ، والتي لا يمكن بغيرها على أية حال الوصول إلى نتائج ذات معنى. ومع ذلك.. لـــيس مـــن المستحيل، ولا من النادر وقوعا، أن يصل المرء إلى ما وراء حـــدوده المادية.. حتى بغير أية مساعدة مباشرة من الوحي. ولكن ملكة العقـــل لها حدودها أيضا.. إن نطاق علم الله يتجاوز ويسمو على الزمان والمكـــان، ولكـــن العلم الإنساني لا يستطيع ذلك. وعلى هذا فإن كل المعـــارف التي تقع خارج نطاق حدود قدرة الملكات الإنسانية.. لا يمكن الحصـــول عليها إلا بواسطة الوحي الإلهي الذي يؤتيه الله تعالى لمن يشاء سبحانه. يقول القرآن الكريم:

﴿فَلا يُظْهِرُ عَلَى غَيْبِهِ أَحَدًا ۞ إِلا مَنِ ارْتَضَى مِن رَّسُولٍ﴾ (٧٢ الجن:٢٧-٢٨)

ويجـــب أن نفهم جيدا أن الآية الثانية في هذا المقتطف القرآني لا تنفي إطلاقا إمكانية أن يتلقى غير الأنبياء الغيبَ، كما يحدث عن طريق الأحلام والـــرؤى، أو حتى سماع وحي صوتي، وإنما النفي هنا هو لإمكانية أن ينال أحد الوحيَ بكثرة في الكم والنوع غير رسل الله، فالآية تؤكد أن الله تعالى "يُظهـــر رسله على غيبه" وليس "يظهر غيبه لرسله"، وهذا يعني أن المعرفة الـــتي تُعطى لغير الأنبياء، حتى من خلال الوحي، لا يمكن أن تتساوى في الوضوح، واليقين، والكمال، مع المعارف التي تُعطى لرسل الله.

وأيضـــا.. هـــذا التفرد في سمو المعارف كمًّا ونوعا، يرتبط في المقام الأول بالمعـــارف الروحانية ومعارف أمور الحياة بعد الموت. وهناك أيضا الكـــثير من المعارف الدنيوية التي يشملها ويحتويها كذلك الوحي الإلهي، ولكن هذا يحدث بشكل عرضي، وذلك بقصد تقوية إيمان المؤمنين بصدق أنبـــيائهم، وفي وجود إله حكيم عليم بكل شيء. وعادة يكون الإنسان حـــرا في التقصـــي والبحـــث بغير مساعدة من الوحي في جميع مجالات البحوث التي تتعلق بالأمور الدنيوية. وما يرفضه القرآن ويستنكره بشدة هو أن يكون للإنسان أية قدرة على الإحاطة.. ولو بجزء صغير من العلم الإلهي.. بغير عونه تعالى أو بغير إذنه. يقول ﷻ:

﴿وَلا يُحِيطُونَ بِشَيْءٍ مِّنْ عِلْمِهِ إِلا بِمَا شَاءَ﴾ (٢ البقرة:٢٥٦)

إن المعـــنى واضـــح.. وهو أن الإنسان يستطيع أن يصل إلى معرفة المجهـــول، ولكن فقط بالقدر الذي يسمح به المولى تبارك وتعالى. وهذا يعني أيضا أن ما يُسمى بالأبحاث والاكتشافات الدنيوية، أي التي تتم بغير طـــريق الوحي الإلهي، ليست في الحقيقة دنيوية بحتة، فكل مرحلة ينفتح فـــيها مـــنظور جديد للمعرفة، إنما يتم ذلك حسب التقدير الإلهي العام. وهذا ما تؤيده الآية الكريمة:

﴿وَإِن مِّنْ شَيْءٍ إِلا عِنْدَنَا خَزَآئِنُهُ وَمَا نُنَزِّلُهُ إِلا بِقَدَرٍ مَّعْلُومٍ﴾ (١٥ الحجر:٢٢)

والمعنى الأكثر روعة الذي تبينه الآية هو أن عالم المجهول واسع لا حدود له، وعميق لا قرار له، ومع هذا فإن الله تعالى يستمر في السماح للإنسان أن يسبر غوره، ويكشف غموضه، ولكن بالقدر الذي يسمح به سبحانه حسب احتياجات ومتطلبات الزمن. وعلى هذا.. فإن لفظي "المجهول" و"الغيب" لا يعنيان أبدا تشجيع الجهالة والإيمان الأعمى. بل على العكس.. إنهما يعنيان التشجيع على البحث المتواصل وتقصي الحقائق، بالتأكيد أن كل ما يعلمه الإنسان كحقيقة واقعة ليس في الواقع سوى جزء بسيط، يتناهى في الصغر بالنسبة لما لا يعرفه. وعلى هذا فإن جهد الإنسان لاكتساب المعرفة يجب أن يستمر على الدوام، لأن بحر أسرار الطبيعة واسع فسيح.. لا ينتهي ولا ينفد.

إن الأدوات الوحيدة المتاحة للعقل الإنساني لاتخاذ قرار منطقي معقول هي انطباعاته الذاتية والموضوعية. وحتى لو كانت نزاهة صاحب القرار فوق مستوى كل الشبهات، فإن قراراته قد تكون خاطئة بسبب العوامل التي ليست في نطاق قدرته ولا تحت سيطرته. فسوء الفهم، والخطأ في نقل المعلومات، وتعرضه للخداع، والقصور في الاستعدادات العقلية والملكات الذهنية، كلها يمكن أن تؤثر تأثيرا سلبيا على نوعية سلامة القرار. وأيضا.. حينما تختلف زوايا النظر لدى مختلف الناظرين، فسوف تختلف أيضا رؤية المنظور لديهم. ورغم هذه النقائص واحتمالات وقوع الخطأ، فلا يمكن إنكار أن الاستعداد العقلي لدى الإنسان كان هو المسؤول عن توجيه خطوات الإنسان جيلا بعد جيل من عصور الظلام إلى عصور النور النسبي.

هل يمكن يقينا إثبات أن القرآن الكريم كتاب صادق حق في كل ما ذكره من أن الله تعالى يوحي ببعض الغيب لمن يختاره من عباده؟ هل يمكن

التدلـــيل للمتشكك والملحد على أن الإيمان بالغيب ليس مجرد وهم ولا خـــيال ولا أمـــل كاذب، ولكنه ينبني على الحق ويمكن إثبات وإيضاح معقوليته؟ إن الإجابة على هذه الأسئلة يجب أن تؤيدها الحقائق والبراهين العلمـــية. وهذا هو بالضبط الغرض من تدوين هذا المؤلف، وسوف يجد القـــارئ في الفصـــول التالية الأدلة الوافية على مصداقية الوحي كوسيلة يمكن الاعتماد عليها في الوصول إلى المعرفة واكتسابها.

وحســـب ما جاء في الرسالة التي تحتويها آية سورة الحجر المذكورة فيما سبق، فإن أفق الإنسان في اتساع مستمر، إذ لم يزل المجهول يتحول باســـتمرار إلى معلوم. وهذا الإدراك يخلق في النفس عطشا لا يمكن إطفاء غلـــيله، وشـــوقا للمزيد من طلب المعرفة. وهو أيضا رسالة أمل وفخر.. كما أنه درس عظيم للتواضع.

أمـــا درس التواضع فيتعلق بالإدراك المتزايد لدى الإنسان بأن معرفته ليســـت إلا نزر ضئيل بالنسبة لما لا يعلمه، فإن ما يعلمه الإنسان لا يزيد عن كونه مجرد نقطة أو دون ذلك على وجه الخلود. إن ما نعرفه اليوم قد يزيد مليارات المرات عما كنا نعرفه قبل ألف عام. وما سوف نعلمه بعد ألـــف عام قد يزيد مليارات الأضعاف عما نعرفه اليوم. ومع ذلك فحتى ذلك الكم من المعرفة سوف يبدو ضئيلا عديم القدر حين مقارنته بخزائن علم الله تعالى التي لا حدود ولا نهاية لها.

وكـــلما أسرعت قافلة الاكتشافات في خطاها.. كلما بدت القيود التي تحد من فاعلية الحواس الخمس أشد وضوحا. فهناك مجالات كثيرة من الحـــياة والأصوات حولنا هي أبعد من إدراك حواسنا الطبيعية. وإذا كان باســـتطاعتنا تحســـين قدرات تلك الحواس، فسوف نبصر ألوانا جديدة ونســـمع عديدا من الأصوات الغريبة. أضف إلى ذلك أن ما نراه نحن من ألـــوان وأشكال الأشياء.. تراه الحيوانات والحشرات أيضا ولكن بشكل يخـــتلف تمامـــا. إن رؤية العالم المادي، ومنظر الألوان، وإدراك الروائح،

ومذاق الطعم، كلها تختلف كثيرا لدى نوع من الكائنات عنها لدى نوع آخر، حتى إن كل حقيقة تتحول إلى حقيقة نسبية. غير أن هذا لا يترتب عليه انهيار أو اضطراب النظام في المملكة الحيوانية الواسعة.. فإن الفروق بين قُوى الإدراك تؤدي إلى بقاء الحياة واستمرارها على جميع المستويات أكثر مما تعرقلها أو تعوقها. فالقوة البصرية المدركة للأشكال والألوان لدى النسور الجارحة ونحل العسل وسمك الصبيدج (السُبّيط) تناسب تماما متطلبات كل منها. فأسماك الصبيدج والحشرات ترى الأشياء في هيئات مختلفة تماما بالمقارنة بما يراها فيها الإنسان، لأنه من الضروري لحياتها أن ترى الأشياء إما في هيئة أكبر أو أصغر مما هي عليه في الحقيقة. وهكذا يختلف إدراك البصر في كل نوع من المخلوقات عن غيرها. ولكن عين الإنسان لا تظل حبيسة داخل نطاق قدراتها الطبيعية، إذ يمكن أن تتقدم أيضا قوة الإدراك البصري لدى الإنسان تقدما يُقاس بالمعايير الفلكية، وذلك بمساعدة أكثر المناظير الإلكترونية تقدما.

وعندما نظر جاليليو (حوالي ١٦٠٠م Galileo) من خلال منظاره البدائي.. غمره السرور باكتشافه هذا، حتى إنه أعلن بكل فخر أنه استطاع أن يزيد مدى رؤية الإنسان إلى مائة ضعف. ولكنه ما كان يعلم أنه بعد مرور وقت غير طويل بعد انقضاء زمانه.. سوف ينبلج فجر ذلك اليوم الذي يرى فيه الإنسان الكون من حوله وقد زادت قوة الرؤية لديه مائة ألف.. بل قل مائة مليون مرة.. أكثر وأوسع وأوضح عما رآه هو. نعم.. إنه كان يقارن اكتشافاته واختراعاته بما كان عليه الأمر في الماضي فقط من وجهة نظره، ولكن ما أكثر ما ثبت أن إعجاب المرء بإنجازاته هو أمر قصير المدى، وسرعان ما يذبل ويزول.

إن مأساة الأيام الأخيرة في حياة جاليليو التي انتهت بإصابته بالعمى الكامل هي مأساة حزينة، ولكنها تثبت الأمر الذي نقصده. ففي إحدى رسائله التي كتبها إلى أحد أصدقائه المقربين، راح يشكو إليه أنه – وهو

الـــذي اخترع التلسكوب واستطاع "أن يوسع آفاق الكون" حسب ظنه "مائة مرة" – قد صار حبيسا في حدود جسده.

لقـــد كـــان لهذا العمى الذي أصابه وقعا أليما على نفسه، أصابه في حياته بمرارة شديدة. غير أن هذا التعبير الحزين عن مدى الخيبة والإحباط الـــذي شعر به جاليليو يقودنا إلى وجه آخر لموضوع الغيب. إن لم يكن جاليليو متمتعا بنعمة البصر قبل إصابته بالعمى، لكان من المستحيل عليه أن يتصـــور مـــا هو موجود خارج حدود الأرض التي يمشي عليها، ولا استطاع أبدا أن يميز بين النور والظلام. إن أقصى ما كان ممكنا في قدرته هو أن "يؤمن" بما يسمعه عن حقيقة وجود النور، ولكن بطريقة مبهمة لا يمكن وصفها. ورغم أنه في الأمور المتعلقة بالنور والألوان.. لم يكن لديه مـــن الوسائل أو المعايير ما يمكنه من قياس مدى صحة إيمانه، إلا أن إيمانه هذا لم يكن ليُعتبر غير حقيقي وغير صحيح، لمجرد أنه ليس سوى روايات وتقَولات. إن هذا المثال ينطبق فقط في أحوال معينة، إذ أننا حين نتصور المعضـــلة التي يعيش فيها رجل أعمى يحيط به أولئك الذين يتمتعون بنعمة البصر، نجد أن لديه على الأقل شيء ما ينبني عليه إيمانه. ولكن إذا تصورنا مجـــتمعا جميع أفراده من العميان.. هل يمكن لهم أن يؤمنوا بوجود النور وقدرة الإبصار؟ بالتأكيد لا. إن الأمر يحتاج إلى شخص بصير لكي يحاول مســـاعدة العمـــيان على إدراك وجود الأشياء التي هي بعيدة عن إدراك حواســـهم، ومن هذا المثال يتبين بجلاء مدى أهمية وعظمة الوحي الذي يعلو ويسمو على المعارف المادية الدنيوية.

إن الإنســـان، الـــذي خُلق بعدد محدود من الحواس، مهما بلغ من حكمـــة وثقافة، لا يستطيع أن يخطو خارج حدود حواسه. ومع هذا فلا يمكـــن اســـتبعاد أن يكون له من الحواس أكثر مما يدرك. ولكن الله جل جلالـــه هـــو وحده الذي يستطيع أن يخبر الإنسان بالحقائق والأمور التي تكون خارج نطاق قدراته.

إن طبيعة الحياة بعد الموت.. التي يحاول القرآن الكريم تقريب وصفها.. تتعلق بنفس الغيب المجهول الذي نتحدث عنه، وقد استخدم القرآن الكريم تعبيرا رائعا لبيان صعوبة استيعاب ذلك الغيب. فعندما يذكر القرآن بعضا من هذه الأمور التي لا يمكن للإنسان إدراك حقيقتها في الواقع، فإنه يضيف التعبير التساؤلي: وما أدراك *(أيها الإنسان)* ما هي حقيقة ذلك الذي نذكره لك؟ وفيما يلي بعض الأمثلة لتوضيح ذلك في قوله تعالى:

﴿وَمَا أَدْرَاكَ مَا يَوْمُ الدِّينِ ۞ ثُمَّ مَا أَدْرَاكَ مَا يَوْمُ الدِّينِ﴾

(٨٢ الانفطار:١٨-١٩)

﴿الْحَاقَّةُ ۞ مَا الْحَاقَّةُ ۞ وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْحَاقَّةُ﴾ (٦٩ الحاقة:٢-٤)

﴿سَأُصْلِيهِ سَقَرَ ۞ وَمَا أَدْرَاكَ مَا سَقَرُ﴾ (٧٤ المدّثر:٢٧-٢٨)

ليس الأمر بتاتا هو عدم قدرة الإله الخالق على تفهيم الإنسان، ولكنها عدم قدرة حواس الإنسان بحدودها الضيقة. إن من فقد واحدة أو اثنتين من حواسه الخمس لا يستطيع بطبيعة الحال أن يفهم حقيقة طبيعة الأشياء التي تختص بها الحواس المفقودة. فالأصم لا يستطيع أن يتخيل فكرة الأصوات، والأعمى لا يمكن أن يتصور معنى الرؤية. وعلى ذلك فإن الآخرين الذين يستطيعون السمع والبصر يحاولون مساعدة أولئك ليتلمسوا وسيلة قد تبدو لهم صعبة الإدراك بالفكر. وكذلك فإن القرآن الكريم عندما يتحدث عن أمور الحياة الأخرى، يلفت أنظار الإنسان إلى أنه لا يستطيع في الحقيقة فهم طبيعة ما يصفه سبحانه. إنه التصور البشري العاجز وليس عجز الإله هو ما يُذكر هنا. وما يعنيه ذلك واضح تماما، إذ لا بد من إضافة بعض الحواس الجديدة في الحياة الأخرى إلى الحواس التي نملكها هنا على الأرض. فكل ما نعلمه الآن عن الحياة الآخرة، على أحسن تقدير.. ليس سوى تصور باهت لحقائق غامضة، تماما كما يكون

لـــدى الشـــخص الأعمـــى مـــن تصور لما يمكن أن تكون عليه الألوان والأضـــواء. *وما أدراك (أيها الإنسان) ما هي حقيقة ذلك الذي نذكره لك؟*

إن توســـيع دائـــرة الحواس لدينا.. حينما يتحقق.. ربما يغير تماما من إدراكـــنا وشعورنا بما عرفناه وجربناه بالفعل هنا على هذه الأرض. فمثلا نظن أننا نعرف ماذا يعني الحب، كما نظن أننا نعلم ما هي المعاناة. ولكن.. مـــاذا يمكـــن أن يكون الشعور بالحب في الحياة الأخرى، وماذا يمكن أن يكون الشعور بالألم والمعاناة؟ إن الإنسان ليرتجف حين يحاول تصور ذلك. ولا عجـــب بعد ذلك أن يخبرنا القرآن الحكيم أنه رغم الصورة الحية التي يـــرسمها لنا عن الحياة الأخرى في الجنة، إلا أنها في الحقيقة تظل ما لا عين رأت ولا أذن سمعـــت ولا خطـــر على قلب بشر. وكذلك.. بالرغم من الوصف التفصيلي لعذاب الجحيم، إلا أن القرآن يسرع ليقول لنا محذرا من ســـوء الفهـــم: ﴿وَمَا أَدْرَاكَ ما سَقَرُ﴾. وكلما ازداد المرء تفكرا وتدبرا في معـــنى الغيب.. كلما تفتحت له آفاق وإمكانات ما كان يحلم بها. ولكن لكي يدرك الإنسان تماما ما هو موجود في طيات المستقبل، وما هو خبيء في شـــعاب الحقـــائق المجهولة.. فإن الإنسان يجد نفسه دائما في حاجة إلى الوحي الإلهي. غير أن الحدود التي تحيط بقوة الإدراك لدينا ليست وحدها العائق الذي يعرقل اكتسابنا للمعرفة، فحتى في نطاق حواسنا.. نجد أن ما هـــو محجوب عنا يفوق بكثير ما نراه ونعلمه بحواسنا. ومهما يكن من أمر الإيمـــان بالغيـــب.. فهو ليس إيمان بلا شيء، فالإيمان بلا شيء هو إنكار للإيمان بالغيب.

إن حكمـــة هـــذه الآيـــة الكريمة تنير الطريق للمؤمنين في سَفْرتهم، وتقودهم دوما إلى الأمام في رحلة لا تنتهي من السعي للمعرفة. فبالنسبة لهم لا يوجد فراغ ولا باطل ولا عبث بغير معنى، وإنما توجد فقط أستار مســـدلة في انـــتظار أن ترتفع لتكشف عن خزائن علم الله تعالى الذي لا

نهاية له.

ومهما خالجنا من فخر واعتزاز بالقليل النادر من المعرفة التي نملكها، فإنها بالمقارنة تبدو تافهة لا قيمة لها، كأنها حبة رمل في سلسلة شاهقة من الجبال. غير أن سلاسل الجبال التي نعرفها نحن على الأرض ليست بغير حدود ولا هي بدون نهاية، أما سلاسل جبال المعرفة التي نتحدث عنها فهي تمتد على المدى الواسع الطويل للأزلية بغير بداية وبدون نهاية.

ليس في هذا الحديث أي تثبيط لهمة الباحثين والمكتشفين، فهو يعني أنه أيا كانت المعرفة التي يكتسبها الإنسان، من خلال مجهوداته الخاصة كما يبدو، إلا أنها في الحقيقة قد أتيحت بفضل الإرادة الإلهية. وبغير هذه الإرادة.. وبدون مشيئة الله تعالى، فإن كل بحث وكل عمل يقوم به الإنسان لن يحمل ثمارا. إن سعي الإنسان لكسب المعرفة لن يثمر إلا بالقدر المناسب وفي الوقت المناسب حسب مشيئة الله تعالى في الخلق. ورغم أن ما يحققه الإنسان من معارف في المجالات الدنيوية ليس من خلال وسيلة الوحي الإلهي مباشرة، إلا أنها تحمل طابع موافقة الله تعالى وتقديره. فإن قدرات الحواس الخمس قد منحها الله للإنسان، وأعطاه أيضا القدرة على استخدامها لما فيه فوائده وتحقيق مصالحه، وهذا كله من فضل الله عليه.. أنه سبحانه مكّنه من اكتساب المعرفة.

إنه الخالق القوى العزيز الذي سخر للإنسان كل ما هو معروف أو كامن في الكون. وهو الله أيضا الذي علم بسابق علمه جميع ما يمكن أن يحتاجه الإنسان خلال العصور اللازمة لتقدمه المادي والروحاني والعلمي والاقتصادي والثقافي.. كما في قوله تعالى:

﴿وَسَخَّرَ لَكُمْ مَّا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ جَمِيعًا مِّنْهُ ۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾ (٤٥ الجاثية:١٤)

إن الإنسان ليعجز أن يجد لمحة أكثر روعة من هذه الآية الكريمة التي

تشجع على البحث والاستقصاء بغير حدود. فهي تقرر أن كل ما يمكن أن يكتشفه الإنسان يكون مسخرا لـــه وفي خدمته. ولكن ليس هذا كل مـــا في الأمر، فإن الآية التالية لا تتحدث عن السماوات والأرض المرئية فحســـب، بـــل تتحدث أيضا عما بينهما، وتقرر أنه أيضا مسخر لخدمة الإنسان. وقد أعلن القرآن هذه الحقيقة المدهشة منذ أربعة عشر قرنا من الزمان. والمعنى واضح.. إن ما يبدو أنه فضاء بين الكواكب ليس فراغا في الحقـــيقة، بـــل هو مملوء بشيء ما.. لا يعرف الإنسان شيئا عن حقيقة وجوده. يقول تعالى:

﴿وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا إِلا بِالْحَقِّ﴾

(١٥ الحجر:٨٦)

مـــا هـــو ذاك الـــذي يوجد بينهما وكيف يمكن أن يُسخر لخدمة الإنسان؟ هذه الأسئلة لا تزال تنتظر الإجابة. إن القرآن يتحدث عن مدًى واســـع يفوق خيال الإنسان. ولعلها المادة القاتمة التي يومئ إليها هنا، أو شـــيء آخر لا نفقه عنه شيئا حتى الآن. إن هذا الإعلان القرآني الحكيم يعـــني أنه في يوم ما سوف يتمكن الإنسان من استخدام والاستفادة من هذه الأسرار التي تشير إليها الآية الكريمة.

إن محيط الأرض ليس سوى خمسة وعشرين ألفا من الأميال، ولكن المـــدى الواسع الذي يتحدث عنه القرآن المجيد يمتد إلى ما يقرب من ثماني عشـــرة إلى عشرين مليارا من السنوات الضوئية، من أقصى طرف مرئي لدينا للكون إلى أقصى الطرف الآخر، وهو يتمدد ويزداد اتساعا بسرعة تفوق الخيال. وهذا يعني أنه إذا أمكن لأحد المسافرين في الفضاء أن يبدأ رحلـــته الـــيوم من أحد أطراف الكون.. منطلقا بسرعة الضوء التي تبلغ ١٨٦٠٠٠ مـــيل في الثانية.. فقد يصل إلى الطرف الآخر بعد مرور ثمانية عشـــر أو عشرين مليارا من السنين، بشرط أن يثبت حجم الكون خلال هـــذه المـــدة الزمنية ولا يتمدد خلالها، الأمر الذي يخالف الواقع بطبيعة

الحـــال. والآن.. فليحاول من يشاء أن يدرك المعنى الذي يقصده القرآن المجيد حين يعلن أنه في كل هذا الاتساع المهول لا توجد ولا فقاعة واحدة مـــن فراغ، بل ولا توجد بوصة واحدة، ولا حتى مليمتر واحد، بل ولا حـــتى نانومتر*، ولا مجرد نقطة من أدق النقاط المتناهية في الصغر، خالية تماما من كل شيء.

وللآيـــة التي نحن بصددها أهمية خاصة تستحق الاعتبار. فحتى بغير استخدام وسائل البحث والتقصي الطبيعية، يستطيع الله تعالى العليم بكل شـــيء أن يكشف عن بعض أسراره فيوحي بها إلى من يشاء. ومن هنا.. فـــأي ذكر في الصحف المقدسة لأي من أسرار الطبيعة، قبل أن يكشف البحـــث العـــلمي غطاء الأسرار عنها، إنما يكون في ذاته دليلا قويا يؤيد وجـــود خالق عظيم للكون عليم بكل شيء فيه. إنه هو وحده سبحانه الـــذي يعلم كل شيء.. سواء كان ذلك في عالم الغيب أو العالم المشاهد والمدرك بالحواس، فهو وحده سبحانه ﴿عَالِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ﴾.

والمعـــرفة الـــتي تُكتسب عن طريق الوحي الإلهي هي شيء آخر تماما يخـــتلف عـــن المعـــرفة التي تُكتسب عن طريق البحث العلمي الدنيوي. والصحف المقدسة ليست بالطبع مراجع للعلوم الدنيوية، وعلى هذا فإن أية إشـــارة فـــيها إلى الموضوعات العلمية، لا يمكن أن تكون قد جاءت فيها بمحـــض الصـــدفة. إن الغرض الرئيسي هو التأكيد على وحدة المنبع؛ أي إثـــبات أن العـــالم المادي والعالم الروحاني كلاهما من صنع نفس الخالق الواحد. ولنتذكر أن نبي الإسلام ﷺ الذي تلقى الوحي القرآني كان رجلا أميًّا، وُلد في مجتمع أمي. وقد تم مولده ونشأته في بلاد كانت تحيط بها من جانبيها الشرقية والغربية حضارتان عظيمتان في ذاك الوقت.. الإمبراطورية الرومانية والفارسية.

كانـــت الصحراء العربية في ذلك الزمان محصورة في الوسط كأرض

* النانومتر جزء من مليون جزء من السنتيمتر. (المترجم)

قفراء، لا ينبت فيها سوى الظلمة، ولا ينمو بها إلا الجهل. أفلا يكون من الخـــارق لكل مألوف لشخص وُلد في ذلك المكان في القرن السادس بعد المـــيلاد، أن يتحدث بهذا الجلاء والبهاء عن الأديم الواسع للكون وأسراره الرحبة التي يحتويها.. تلك الأسرار التي بدأت الآن فقط تخرج من مكنونها وتبدو كالنجم الباهت الذي لا يكاد يظهر في الأفق لضآلة تألقه، حتى إن العين لتخطئه في وهج انبثاق الفجر. إنه أمر يكاد ألا يُصدق.. أن يستطيع رجـــل مثل ذلك أن يتحدث عن أمور لم يكن يعلم أحد عنها شيئا، ولا حـــتى أكبر وأعظم العلماء في عصره في أي مكان من العالم، ومع ذلك يثبـــت أنه كان على حق بعد أن برهنت على صدقه البحوث العلمية التي أجريت في القرن العشرين. ولا بد أيضا أنه كان على حق حينما أعلن أن كل ما أتى به من علوم لم يكن من بنات أفكاره ولا من هواجس نفسه، وإنمـــا جـــاء من لدن ينبوع كل علم ومصدر كل حكمة.. العليم بكل شيء، العزيز العظيم القدير.

إن الدكـــتور موريس بوكاي (Maurice Bucaille) الكاتب الفرنسي المشـــهور، قد تأثر بهذه الحقيقة فعبر عن اندهاشه بشيء من التفصيل في كـــتابه: الكـــتاب المقدس والقرآن والعلم[1] (The Bible, The Quran And Science) ، فجمـــع موادا كثيرة من الكتاب المقدس، ومن القرآن المجيد، أخضعها للبحث الدقيق بغير أي انحياز، وقارنها بالحقائق العلمية التي ثبتت صـــحتها وتم قـــبولها عالمـــيا. وكان آخر ما يتوقع أن يكشف عنه ذلك التحري الذي أجراه بنفسه أن ينكشف له أن القرآن المجيد كان صحيحا وحقا في كل حالة وفي كل مرة. وقد تم نشر البحث الكامل الذي أجراه في الطـــبعة الفرنسية الأولى عام ١٩٧٦. ولم يكن هناك من شيء ذكره القرآن يتعارض أو يتباين مع المعارف العلمية في القرن العشرين.

وهـــنا يكـــون مـــن المناسب أيضا أن نذكر اسم أستاذ كندي لعلم التشريح هو البروفسور كيث ل. مور (Keith L. Moore) عميد كلية الطب

في جامعة تورنتو بكندا، الذي بحث بشكل ناقد ما ذُكر في القرآن المجيد عن موضوع علم الأجنة[٢،٣] وكيفية تكوينها. وبالإضافة إلى القرآن الكريم ذكر أيضا بعض الأحاديث النبوية للرسول ﷺ تتعلق بالموضوع. ولما أعجبته نتيجة البحث وتعجب لها، أدلى بشهادته على صحة وحقيقة الوحي القرآني بشجاعة نادرة ووضوح أمين.

ولكن السؤال الذي يجب أن نلتفت إليه هنا هو إلى أي مدى يمكن أن نثق بالنتائج المستخلصة من هذه المقارنات بين ما تحويه الصحف المقدسة وبين الحقائق العلمية. إن الزمن يعمل باستمرار على صقل وتهذيب قدرة الإنسان على الفهم وتوسيع آفاق معارفه، وبالتالي فإن إدراكه لحقائق الأشياء يخضع لتغير مستمر. فكيف يمكن إذن الاعتماد على حكمٍ ما.. في أية مرحلة علمية، وكيف نقبله على أنه هو وحده الحكم الفاصل والنهائي؟ خذ مثلا حالة قوانين الطبيعة المقبولة بالإجماع بشكل جامع شامل ولا تتغير، ومع ذلك لا يمكن أن يقال أن الفلاسفة والعلماء قد فهموا هذه القوانين بشكل واحد في جميع العصور. وعلى ذلك ألا تفقد الشهادة العلمية التي شهد بها الزمن المعاصر على صدق الوحي القرآني بعض مصداقيتها؟ هل يمكن للمرء أن يعتمد على صحتها ويطمئن إلى حقيقتها النهائية بيقين مطلق؟ ألا يكون من المعقول القول بأن الأمور المقبولة اليوم على أنها حقائق صحيحة سوف تخضع للتساؤل والشك في الغد من أصحاب الفكر المتطور والمستنير؟

نعم.. إنه من المعقول أن تُثار هذه الأسئلة، ولكن إلى حد ما. فجميع أفكار الماضي لم تتغير بالضرورة في العصور التالية. هناك ما يفوق الحصر من المفاهيم الإنسانية التي.. بعد أن مرت بفترة من التغير والتطور.. قد ثبتت أخيرا واستقرت في نهاية الأمر. وهناك الكثير من قوانين الطبيعة التي تم قبولها كحقيقة عامة شاملة، وظلت هكذا بدون جدال وبغير اعتراض. قد تكون هناك بعض التعديلات الطفيفة في المفهوم العام، ولكنها بقيت

عـــلى حالها بغير تغير. ولا يحتاج الأمر إلى نقاش فلسفي أو بحث علمي لإثـــبات حقيقـــتها وتقرير صحتها. وعلى مستوى العناصر الأولية للماء والـــنار والهـــواء والأرض، فقد استطاع الإنسان فهم خواصها الطبيعية بطريقة أفضل مع مرور الزمن حتى استقر هذا الفهم، ولم يحدث أي تغيير في فهـــم الخواص الأساسية في طبيعتها. فالنار لا تزال تحرق كما كانت تفعل دائما، والماء لا يزال يطفئ النار كعهده دائما. هذه الحقائق أساسية ومســـتمرة ودائمة مهما مر عليها الزمن. وعلى هذا لا يستطيع أحد في كامل قواه العقلية أن يتنبأ بأن الماء سوف يشعل النار ويُغذي اللهب. ومع ذلـــك فـــإن بعض النبوءات التي تكون من وحي الله تعالى لا تقل غرابة، باعتبار أنها تختلف اختلافا تاما عما هو سائد ومعروف ومستقر في أذهان الـــناس. فمثلا.. في العصور السالفة القديمة كان الأمر يقتضي وجود نبي حتى يتنبأ بنبوءة غريبة عجيبة تتعارض مع ما هو معروف ومألوف، فتقول إن يوما سوف ينبلج فجره فيرى الناس فيه الماء يشعل النار، بالإضافة إلى خاصـــيته في إطفـــاء النيران. ولا شك أن هذه النبوءة سوف تبدو نبوءة عجيـــبة، حيث يظهر من معطيات العصر وواقعه أنها لا يمكن أن تتحقق. ولكـــن إذا حـــدث فيما بعد أن تم اكتشاف عنصر الصوديوم، وبدراسة خواصه تبين تحقق النبوءة بتفصيلها، وأن إضافة الماء إلى الصوديوم يتسبب في اشتعاله، فحينئذ لا يحق لأحد أن يستبعد صحة مثل هذه النبوءة ويعتبر أنها مجرد ثرثرة عرّاف أو هذيان متكهن. وستظل خاصية الصوديوم الغريبة هـــذه بعد اكتشافها ضمن الحقائق العامة التي لا تتغير، ولا يتوقع أحد أن يوما سوف تبزغ شمسه حين تتغير خواص الصوديوم فلا يعود الماء ليسبب اشتعاله. وإذا جال الإنسان ببصره فيما حوله بنظرة ثاقبة، فسوف يندهش للكم الغزير من المعلومات التي صارت حقائق لا تتغير ولا تقبل الشك أو الجدل.

وكذلـــك الحال في القوى الحسية لدى الإنسان.. قد يتسع نطاقها،

ولكـــن إدراك ما هو حلو المذاق وما هو مر، وما هو لذيذ الطعم وما هو كـــريه، والإحساس بالحرارة أو بالبرودة، وسماع الضوضاء أو السكون، والإحســـاس بالراحة أو التعب، والشعور بالألم والسعادة، وجم غفير من المؤثرات الحسية الأخرى.. لن يطرأ عليها أي تغيير تحت الظروف العادية. إن استقرار مثل هذه الأمور يمكن تصنيفه على أنه يمثل المرحلة الأولية من مـــراحل الـــيقين. والمرحلة الأعلى نسبيا من اليقين تتعلق بمجال البحث العـــلمي. وهنا أيضا نستطيع أن نجد أمثلة على الاتفاق التام بين العلماء عـــلى العديد من الحقائق التي استقرت وصارت عامة ومقبولة عالميا من الجمـــيع في كـــل مكان. فمثلا.. لقد استقر الأمر فيما يتعلق بالتركيب الكـــيماوي للماء، وليس هناك من رأيين في هذا الموضوع. ولا يستطيع أحد أن يزعم بأنه مع مرور الوقت وكرّ الزمان.. فإن القانون الكيميائي لـــلماء ســـوف يتغير إلى قانون جديد سوف يُكتشف في مستقبل الأيام ليحل محل القانون الحالي، أو أنه سوف يكون يد٣أ٥ بدلا من يد٢أ.

ومـــن الواضـــح أن هـــناك حدودا لإمكانات وقوع التغيير في فهم الإنسان لما حوله من الأشياء. ولكن الكم الأكبر من المعارف العلمية، بعد أن تثبـــت وتســـتقر، تظـــل في جوهرها على نفس الحال إلا من بعض التحسينات البسيطة الهامشية. كيف ترتبط الذرات بالذرات، والجزيئات بالجزيئات، أيٌّ الروابط ضعيفة وأيها قوية نسبيا، وما هي كيفية استخدام هـــذه المعلومات لتخليق مواد كيميائية جديدة.. كل هذه أمور مفهومة جـــيدا. واســـتمرار تدفـــق معلومات جديدة لن يغير من الأنماط الثابتة لسلوكها. إن نمو وتزايد معارف الإنسان في هذا المجال من البحث لا يمثل أي تحـــد للأساسيات المستقرة والمقبولة عالميا. ومن هنا يتضح أن حقيقة أي أمـــر من الأمور التي ذكرَهَا الكتب المقدسة يمكن التحقق منها بقدر كـــبير من اليقين حين مقارنتها بالمعلومات المادية التي ثبتت صحتها على طول الزمان.. عصرا بعد عصر.

وأيضا هناك أشياء صارت من اليقينيات.. ليس لأنها اجتازت اختبار الـــزمن لوقت طويل، بل لأن حقيقتها يمكن إثباتها عالميا. وجميع الأفكار والاكتشافات الجديدة التي تتعلق بقوانين الطبيعة وسلوك المادة تأتي كلها تحت هذا النسق، بعد أن تثبت صحتها من خلال إجراء التجارب المعملية علـــيها في أنحاء كثيرة من العالم. إننا نقصد مثل هذه الحقائق الثابتة حين نشـــهد على صحة الدعاوى الروحية بأن نعرضها على محك الاكتشافات العلمية.

وحسب هذا الشرح والبيان، نقول إن الوحي القرآني قد ثبتت صحته على الدوام، وحينما تثبت صحته يظل دائما صحيحا، ولم يحدث أبدا أن ظهر خطؤه. إن الدور الذي يقوم به الوحي القرآني جد عجيب، خاصة فيما يتعلق بنقل المعرفة من نطاق عالم الغيب إلى عالم المشاهدة، وسوف نستفيض في شرح هذا الموضوع تحت أبواب مختلفة في الفصول القادمة إن شـــاء الله. أمـــا الآن.. فنعود إلى النقاش العام الذي يتعلق بتوسيع نطاق المعرفة لدى الإنسان.. والمراحل التي تمر بها الأفكار الجديدة إلى أن تصبح حقـــائق مطلقـــة. فعندما تنبثق فكرة جديدة من نطاق عالم الغيب، فإنها دائمـــا تخضـــع لاختبار الفكر والعقل، وأيضا لاختبارات التجربة العملية كـــلما كان ذلك ممكنا. وبعد أن تنجح هذه الاختبارات، على مر الزمن ومـــع كـــر السنين وإزاء تعاقب العصور، يمكن حينئذ تصنيفها على أنها حقيقة مطلقة.

هـــذه ظاهرة عامة تعمل على الدوام وبغير انقطاع في كل مجال من مجـــالات الحـــياة الإنسانية. فنحن لا نتحدث هنا عن تأكيدات منطقية (theses) أو عـــن منطق مضاد (antitheses)، وهما المصطلحان الفلسفيان اللـــذان استعملهما كانط (Kant) تعبيرا عن الأفكار العظام ذات الأهمية الشاملة؛ وإنما نحن نتحدث عن ظاهرة مستديمة.. رحيبة الإدراك.. شاملة الاستيعاب.. تتعلق بالحنكة الإنسانية، وانطباعاتها، ومدركاتها في كل يوم

مـــن أيام الحياة. إنها عملية شاملة جامعة ومستمرة مثل التطور، تراكمت خلالهـــا طبقة فوق طبقة من الحقائق المستقرة والمشهود لها، واستمرت في رفـــع مســـتوى المعارف الإنسانية التي يمكن الاعتماد عليها، وفي توسيع نطاق الإدراك الإنساني للحقائق المحيطة. إنها هذه الظاهرة الفاعلة الشاملة التي تظل على الدوام تُحَوّل الشكوك إلى مستحسنات، والمستحسنات إلى محتملات، ثم تحول المحتملات إلى حقائق ثابتة ويقينيات. فإذا شهدت هذه المعارف الإنسانية الموثوق بها على صحة الوحي الإلهي بشهادة موضوعية، فلا مبرر حينئذ ولا حجة لجعْل ذلك الوحي عرضة للشك والريبة.

إن الغيب يختص بجميع الأزمنة.. الماضية، والحاضرة، والمستقبلة على السواء. ولا يحصر القرآن نفسه في أي من هذه الأزمنة حين يكشف عن أســـرار الغيب. فهو يغطي جميع الأزمنة بوضوح متكافئ، كما أنه لم يبق عـــلى خط يفصل بين الماضي والحاضر، وبين الحاضر والمستقبل. فبعض الوقـــائع الموغلة في القدم.. والتي تعود إلى ميلاد الكون مثلا، قد أعيدت إليها الحياة لتبدو أمام الرؤية الإنسانية وكأنها أحداث معاصرة، بينما وقائع أخرى في أغوار المستقبل البعيد.. مثل غوص الكون في ثقب أسود، قد تم وصفها وكأنها كانت تحدث أثناء نزول القرآن.

كذلك.. وبنفس الدقة والإحكام.. تنكشف أسرار خلق الحياة ومآلها النهائي. إن القرآن يقص تاريخ الإنسان ويسجل رحلة التقدم والإنجازات الإنســـانية مـــرحلة بعـــد أخرى من البداية إلى النهاية. وهو يفعل ذلك بوضوح كامل، ومهارة فائقة، وكفاءة متميزة. ولا غرو.. فإن القلم الذي دَوَّن القـــرآن كانـــت تمسكه يد العليم البصير الذي كتب ما رآه علمه محفورا على صفحة الأزل الواسعة. وهذا هو كل مضمون ومحتوى كتابنا القرآن.

ولكن قبل أن نتقدم وننتقل إلى الحديث عن كيف أن عصور التقدم العـــلمي والاجتماعي والسياسي للإنسان قد شهدت على حقيقة وصدق

القرآن، نود أن نلفت أنظار القارئ إلى حقيقة هامة.. وهي أن مصداقية الوحـــي الإلهي لا تتوقف بالضرورة على الدلائل الدنيوية وحدها، إذ بين جمـــيع الحقائق التي يأتي بها الوحي الإلهي.. هناك حقيقة تقف متميزة عن جميع الحقائق الأخرى، وتُسمى "***البيّنة***". وللحديث عنها ننتقل إلى الفصل التالي.

المراجـــــــع

1. BAUCAILLE, M. (1979) *The Bible, The Qur'an and Science.* BB Books & Books, Lahore.
2. MOORE, K. L., PERSAUD T.V.N. (1993) *The Developing Human: Clinically Oriented Embryology.* 5th ed., W.B. Saunders Company, Philadelphia
3. MOORE, K. L., (1986) *A Scientists Interpretation of References to Embryology in the Holy Quran.* Journal Islamic Medical Association of the United States and Canada. 19:15-16.